

ملامح عربية - إسلامية في سوانات الحياة الجديدة لدانتي

أ. د. عبد النبی أصطبیف

هل يعد دانتي أليغيري (1265-1321) صاحب الكوميديا الإلهية، وأمير أدباء إيطالية - عصر النهضة - أدبياً عالمياً؟ وهل ثمة ما يؤهله للدخول إلى دائرة الأدب العالمي؟ إذا كان من شروط التأهل لهذه المنزلة تجاوز ما ألفه الأديب من أعمال أدبية في انتشاره حدى الزمان والمكان، وعائقى اللغة والثقافة، فإن دانتي المقربة على نحو واسع في مختلف أنحاء المعمورة، وعلى مدى القرون العديدة التي مرت بعد رحيله عن عالم الدنيا، والمترجم إلى مختلف اللغات الحية، بما فيها اللغة العربية، والمحتفى به نقداً ومقارناً في مختلف التقاليد الأدبية، ولا سيما التقليد الأدبي المقارن العربي من خلال دراسة صلات رائعته التي خلدهه بالمروريات الإسلامية المتصلة بالعالم الآخر (المعراج، والفتوحات المكية لمحبي الدين بن عربي، وغيرهما) والنصوص المقدسة (القرآن الكريم)، والروائع العربية (رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ورسالة التوابع والزوايا لابن شهيد الأندلسي)، يحمل جواز سفر رفيع يؤهله للدخول وهو مرفوع الرأس فخرًا واعتزازًا بمنجزاته، التي منحته أعمارًا عديدة بعد موته، إلى محارب الأدب العالمي، بل والفن العالمي، والثقافة العالمية الإنسانية كذلك.

والواقع أن ثمة إجماعاً عالمياً على قوة تأثير دانتي المستمر والواسع والغني والمتعدد، والمتعد أكثر من ستة قرون، في مختلف الثقافات والأداب العالمية منذ عصر النهضة وحتى يومنا هذا. ذلك أن تأثيره امتد إلى:

- مختلف الأداب القومية.
- ومختلف المعارف الإنسانية التي كان لدانتي، بوصفه رجلاً متميزاً من كبار رجال عصر النهضة، إسهام مهم فيها.

● و مختلف الفنون الجميلة⁽¹⁾، ولا سيما الرسم والنحت والموسيقى والغناء.

ويكفي أن يذكر المرء أن تأثير دانتي في الأدب المكتوب بالإنجليزية² يشمل على سبيل المثال أعلاً من مثل جفري تشوسنر، وفيليب سيدني، وجون ميلتون، وجيرمي تيلور، والسير ت. براون، وجوناثان ريشتاردسون، وتوماس رغاي، وويليام بليك، ولورد بايرون، وشيللي، وتوماس كارلайл، وإزرا باوند، وت. س. إليوت، وويليام بتلر بيتس، وجيمس جويس، وصموئيل بيكيت، وغيرهم؛ وأن ترجمات الكوميديا الإلهية بأجزائها الثلاثة إلى الإنكليزية أكثر من أن تُحصى، وأن الدراسات والشرح والأبحاث والرسائل الجامعية المتعلقة بدانتي وأثاره المتيسرة بهذه اللغة بحاجة إلى عدة مختصين لمسحها وتقويمها، حتى يتبيّن استحالة دراسة تأثير دانتي في أدب قومي واحد، بله عدة آداب قومية، أو الأدب العالمي عامة.

ولما كان التأثير الواسع لدانتي وأثاره في مختلف الأدب والفنون والمعارف الإنسانية مستمر لم يعرف أي فتور على مدى القرون الستة ونيف³ فربما كان من العبث أن يفكّر المرء

(1) انظر: الدكتور غبريايل وهبة، أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي (المقاطعة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م).

(2) Paget Toynbee, Britain's Tribute to Dante in Literature and Art: A Chronological Record of 540 Years (c. 1380-1920 British Academy, London, 1921).

وكذلك:

Davide Wallace, "Dante in English", in: The Cambridge Companion to Dante, Second Edition, Edited by Rachel Jacoff (Cambridge University Press, Cambridge, 2007, pp. 281-304).

(3) انظر:

Manuele Gragnolati, Fabio Vamilletti, and Fabian Lambert, Metamorphosing Dante: Appropriations, Manipulations and Rewritings in the Twentieth and Twenty-First Century (Verlag Turia+Kant, Wien-Berlin, 2010).

وانظر كذلك رسالة جوشوا ستيفن ماثيوس لدرجة الدكتوراه "أليغوري الأمريكي: تلقى دانتي في الولايات المتحدة، 1867-1887" (جامعة آيوا، 2012).

Steven Mathews, "The American Alighieri: Receptions of Dante in the United States, 1818-1867", (Ph. D. Thesis, the University of Iowa, 2012).

ورسالة كارميلا أنطونيو غالاتي لدرجة الدكتوراه "أرض مقدسة: كوميديا دانتي في الألف الثالثة" (جامعة روتردام، 2011)، والتي يناقش فيها تلقى دانتي في إيطالية والولايات المتحدة في القرن الواحد والعشرين، كما يتجلّ في الأعمال التي تنتهي إلى المسرح والثقافة الشعبية (التليفزيون، والفنون التقانية، والوسائل التفاعلية، وألعاب الفيديو، خاصة وأن حوادث الحادي عشر من أيلول قد أفسحت المجال لدانتي جديد ومعاصر ذي صلة وثيقة بالأخلاقيات والقيم التي يجسدها).

Carmelo Antonio Galati, "Hallowed Ground: Dante's Commedia in the New Millennium". (A Ph. D. Thesis, Rutgers, the State University of New Jersey, 2011).

في أن يكتب بمفرده بحثاً عن جذور هذا السحر الذي يتمتع به أدب دانتي والذى يتتجاوز الحدود اللغوية، والقومية، والزمانية، والمكانية، والمعرفية؛ لأن بحثاً كهذا بحاجة إلى مجموعة كبيرة من الفرق البحثية التي يمكن أن تتفحص فسح هذا التأثير في مختلف التقاليد الثقافية والأدبية القومية وتحدد وجوهها وملامحها على نحو موضوعي موثق. ولذا فإنه من الحكمة الالكتفاء بالوقوف على وجه من وجوه هذا التأثير المستمر لكتاباته في مختلف الأداب والفنون والمعارف والعصور. وربما كان الدور الذي أداه دانتي في إشاعة شكل السوناتا sonnet في الشعر الغنائي الأوروبي، منذ أيامه وحتى يومنا هذا، من أبرز وجوه التأثير الدانتي في الأدب الغربي عامة، وهو ما يمكن أن يتضح من خلال مناقشة موجزة لسوناتات دانتي في ديوانه *La Vita Nouva*، (*الحياة الجديدة*)، ومن ثم تقديم دراسة عجلى للتأثير العربي-الإسلامي في شكلها من جهة، وفي محتواها وما يسودها من حساسيات نفسيّة وفنية مستلهمة من الثقافة العربية-الإسلامية من جهة أخرى. ولما كان هذا التأثير قد انتقل إلى دانتي عبر شعراء التروبادور الذين كانوا موضع إعجابه المستمر، ومحاكاته؛ بل واقتباسه أيضاً، فإنه لابد من الإشارة إلى صلات دانتي بهم، وإلى سبل لقاءاته بأناشيدهم التي خلبت ولا تزال، لب الجمهور الأوروبي المولع بشعر الحب عبر القرون. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو: كيف تم هذا الانتقال؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن يشير المرء إلى مجلة حقائق تاريخية تتصل بنشأة الأدب الإيطالي، الذي كان لدى دانتي الإسهام الأكبر فيها، عندما هيأ الإيطاليين لتبني اللاتينية العامية، التي غدت فيما بعد اللغة الإيطالية، وأفعمتهم لاتخاذها أدلة لأدبهم، وربما كان من أهم هذه الحقائق:

- أن نشأة هذا الأدب تعود إلى الرابع الثاني من القرن الثالث عشر، وأن منطلقه كان من بلاط فريديريك الثاني (1220-1250) في صقلية، الذي جمع فيه نحو من ثلاثة شاعرًا عرفوا بـ "مدرسة صقلية الشعرية" *Seccolo Poetica Siciliana* كانوا جميعاً مرتبطين ببلاطه على نحو ما أو آخر.

- ومعنى هذا أن هذه النشأة للأدب الإيطالي جاءت متأخرة عن نشأة نظيرية: الأدب الفرنسي، والأدب الإسباني، اللذين لم يسبقاه زمنياً فقط؛ بل تقدماً عليه فنياً؛ إذ كان الأدب الفرنسي مثلاً (بشعراء التروبادور في الجنوب وبشعراء التروفير في الشمال) أنموذجه الذي

سعى شعراً المدرسة الصقلية إلى محاكاته، ثم إلى تجاوزه، في حين إن الأنموذج الفرنسي كان يستلهم بدوره أدب الأندلسي وبخاصة الموشحات والأزجال التي ازدهرت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر أيها ازدهار.

● وأن محاكاة الأنموذج الفرنسي وراء ازدهار الشعر الغنائي الإيطالي في صقلية - هذا الشعر الذي أنتجه شعراؤها باللهجة الصقلية، أي العامية اللاتينية السائدة فيها، والتي غدت اللغة الإيطالية الأدبية المعتمدة.

● وأن أبرز شعراً المدرسة الصقلية غياكومودا لينتيني Giacomo da Lentini (الذي لا يعرف ولادته بالضبط، ولكنه توفي في حدود عام 1246)، الذي كان يؤدي وظيفة الـ Notary (الكاتب العام) في بلاط فريديريك الثاني، كان، فيما يرجحه الباحثون، هو من "اخترع" السوناتا The Sonnet، أو "الغنائية"، كما يدعوها الدكتور عبد الواحد لؤلؤة⁽¹⁾ التي غدت أبرز إسهام الإيطاليين الشعري، وبخاصة بعد تطويرها على يد كل من دانتي وبترارك.

● وأن دانتي إليجيري (1265-1312) قد وجد في السونatas شكلاً فنياً رفيعاً يستطيع أن يفصح من خلاله عما اعتمل في نفسه تجاه بياتريسي، حبيبه التي فقدتها إلى الأبد، وعاش بينه وبين نفسه تجربة حب رفيع، حب عذري، حاكي فيه أسانذه من الشعراء العرب، مثلما وجد فيها سبيلاً لترسيخ بلاغة العامية التي سعى إلى إحلالها محل اللغة اللاتينية الفصيحة التي غدت بفضله وبفضل بتراكه لاحقاً اللغة الأدبية الإيطالية.

● وأن فرانشيسكوبترارك (1304-1374) قد تلقف "اختراع" دانتي المزعم، وطوره، وبلغ به حد الكمال؛ بل إنه أنتج فيه متنًا فتن الإيطاليين والأوروبيين، خاصة وأنه

(1) الذي يكتب في مؤلفه لدور العربي في تطور الشعر الأوروبي:

"كانت بدايات دانته" في كتابه "شعر الغزل بنمط "الغنائية" التي تغورت في الشعر الصقلي، وبخاصة على يد "دانتي". والغنائية بدورها تطور شديد الشبه بنظام الموشح والرجل من حيث تقسيم القصيدة ومن حيث التفعية. ولا يوجد في شعر أوروبا التراثي، من إغريقي أو لاتيني، أو قروسطي كنزي ما يوحى بظهور نمط الغنائية في الشعر الصقلي ومن بعده شعر "دانته" و"بوكاجيو" (ص 190). وانظر:

د. عبد الواحد لؤلؤة، دور العربي في تطور الشعر الأوروبي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013). ص 190.

أنتجه باللغة اللاتينية العامية، أي بلغة قريبة من الشعب الإيطالي، مما قرَّبه إلى نفوس متلقيه، فتابعوه فيه حتى غدى تقليدًا ينسب إليه، وبات الناس يتحدثون عن "السوناتا البتراركية" في مختلف أنحاء أوربة، مما أغري معظم شعرائها منذ القرن الرابع عشر وحتى يومنا هذا بالنظام فيها، لما انطوت عليه من إغراء ومتعة للشاعر وجمهوره في آن معاً.

ولعل القارئ يتساءل في هذا المقام كيف تأتَّى لغياكومودا ليتني "اختراع" شكل السونatas، ذي النظام المحكم في معناه وفي مبناه، ولا سيما نظام قوافيه، من العدم؟ أم أن ثمة حلقة مفقودة ينبغي البحث عنها؟

تشير ساندرا بيرمان Sandra Bermann في بحثها الموسوم بـ "الدب العالمي والأدب المقارن"، المنشور ضمن المؤلف الجمعي رفيق رو تلدرج للأدب العالمي، إلى أن نشأة السوناتas Sinnet، بوصفها شكلاً شعريًا أوروبيًّا مرتبطة على نحو وثيق بصقلية - ما بعد خروج العرب منها، وبالتحديد بيلاط فريدريك بالثقافة العربية المغربية، وتأكد كذلك أن انتشارها من مهدنا هذا إلى سائر أنحاء أوربة الغربية بشكل خاص قد ساعد على خلق العاميات الأوروبيَّة التي تحولت لاحقاً إلى لغات قومية خاصة بفتح انتشارها ولاسيما في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، ثم نصيف:

"إن السوناتas، التي ارتبطت أصولها بالبلاط الصقلي لفريدرick الثاني الناطق بالعربية، والتي ساعد التاريخ انتقالها على خلق العاميات الأوروبيَّة، قد وصلت الآن (وحوَّلت) عدداً من التقاليد الشعرية من خلال قرون من الترجمة ليس في أوروبا فقط، ولكن في الأمريكتين وأسيا⁽¹⁾."

وتكتب تيودوليندا باروليني عن "دانتي والماضي والغنائي" مؤكدة أن دانتي اليغيري كان:

(1) انظر:

Sandra Bermann, "World Literature and Comparative Literature", in: The Routledge Companion to World Literature, Edited by Theo D'haen, David Damrosch, and Djelal Kadir (Routledge, New York and London, 2014, pp. 169-179, p. 178).

"وريث تقليد غنائي إيطالي مفعم بالحياة ومركب له جذوره في الشعر البروفنسالي الذي انتعش بالبلاطات المتنافسة في جنوب فرنسا في القرن الثاني عشر. وأن أعراف شعر الحب التروبادوري - المستندة إلى فكرة خدمة المحب الإقطاعي لسيده Midons (مادونا الإيطالية)، التي ينتظر منها جائزة نقلت بنجاح إلى بلاط فريديريك الثاني في باليارمو، التي غدت عاصمة أول مجموعة من الشعراء الغنائيين العاميين الإيطاليين، المسماة بـ "المدرسة الصقلية"... وزعيم (أو Capscuola) المدرسة الصقلية، هو غياكومودا ليتيني، المرجح أنه مخترع السوناتا (بينما كانت الـ Canso البروفنسالية الأنموذج بالنسبة للـ Camzone الإيطالية، فإن السوناتا هي إسهام إيطالي، وبالتالي صقلي، لمختلف الأجناس الغنائية الأوروبية⁽¹⁾).

وتضيف، مؤكدة الصلة الوثيقة بين ازدهار هذه المدرسة وبين رعاية فريديريك الثاني لها، أن لحظة شراء المدرسة الصقلية "التاريخية قد تزامنت مع لحظة فريديريك الثاني، وأن زوال مدرستهم تزامن أساساً مع موت الإمبراطور عام 1250⁽²⁾".

غير أنه من المؤسف حقاً أن الباحثين الأوروبيين لم يحاولوا حتى يومنا هذا تففي أصولها العربية-الأندلسية، خاصة وأن الموسحات والأزجال العربية قد أدت دوراً ما في نشأة هذا الجنس الشعري، مثلما كان لها دور مهم؛ بل حاسم، في نشأة أناشيد التروبادور التي انتشرت نم جنوبي فرنسا إلى باقي أرجاء القارة الأوروبية، مسهمة بدورها في نشأة السوناتا من خلال ما يعرف بـ "المدرسة الصقلية" (Sicilian School).

وربما كان الاستثناء الوحيد في هذا التجاهل الواسع الانتشار، الباحث السويسري ديني دي رجمون Denis de Rougmont صاحب الكتاب العظيم الحب والغرب L'Amor et l'Occident الذي يكتب في معرض حديثه عن إطباق التأثير الخارجي على إيطاليا من الشمال والجنوب:

"حول عام 1200، انعقدت صدقة متينة بين رامبو دو فاكيرا Vaqueiras الشاعر الجوال الانكدوكي (أي الذي ينظم قصائده بلغة الأوك)، وبين الأمير القوي البرتو مالاسيينا

(1) انظر:

Teodolinda Barolini, "Dante and the lyric past" in: The Cambridge companion to Dante. Edited by Rachel Jacoff (Cambridge University Press, Cambridge, 1993, p. 14.

(2) المرجع نفسه، ص 14.

Malaspina فقد كان هناك على ما يبدو تيار مباشر جدًا، تبادل "أدب" - إذا شئنا - يوجد بين الجنوب الفرنسي ومقاطعة لومباردو-فينسيا⁽¹⁾.

ثم يضيف:

"وفي أثناء ذلك ازدهرت حول بالرمو؛ حيث يقوم بلاط فريدريك الثاني، المدرسة المسماة بـ"مدرسة الصقليين" (والتي كان من بين أعضائها شاعر بروفنسالي) التي كانت تجدد على علم منها لغة الجوالين الرمزية"، وكان شعراً لها يتحدثون عن السيدة وكأنها امرأة حقيقة، على الرغم من أنها "شيء رمزي بحث" كما يعرفون ويقولون⁽²⁾.

وهكذا كانت الرياح الخارجية، العربية الإسلامية تحديداً، تهب على شبه الجزيرة الإيطالية من الشمال والجنوب معاً. كانت تهب عليها شهلاً، بفعل المجاورة من خلال التأثير التروبادوري المباشر أولاً، ومن خلال الحملات الصليبية التي كانت تمر بها ذهاباً وإياباً ثانياً، وكانت تهب عليها جنوباً من خلال صقلية التي أقام بها العرب ما يقرب من أربعة قرون حاكمين ومشاركين في الحكم ومحكمين، من الفتح العربي الإسلامي لصقلية عام اثنين وثلاثين وثمانمائة ميلادية وحتى سقوط دولة النورمان على يد الإمبراطور الألماني هنري السادس.

ومثلاً كانت الرياح الشمالية تحاول الامتداد جنوباً، كانت رياح الجنوب تمتد شهلاً. فالنفوذ الروماني على صقلية -على سبيل المثال- لم يقتصر على الجزيرة وحدها؛ بل تعداها إلى شبه الجزيرة الإيطالية في الشمال، ولا سيما في عهد ملوكها روجوا الأول، الذي عبر عام واحد وستين وألف مضيق مسينا (الذي يفصل صقلية عن جنوبي شبه الجزيرة الإيطالية) ليوسّع رقعة نفوذه شهلاً، وكذلك في عهد شقيقه روبرت الذي استطاع أن يتمتد بهذا النفوذ حتى مدينة نابولي شهلاً⁽³⁾.

(1) ديني دي رجمون، الحب والغرب، ترجمة د. عمر شحاشير، (وزارة الثقافة، دمشق 1972، ص 226).

(2) المرجع السابق، ص 226-227.

(3) د. عبد الله ميسوم، تأثير المؤشحات في التروبادور، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجائز، 1981، ص 263.

وعندما يتحدث المرء عن النفوذ الروماني في صقلية وجنوبي شبه الجزيرة الإيطالية، فإنه يتحدث عن ملوك كانوا يعيشون سيرة ملوك المسلمين، ويلبسون ثيابهم، ويتحلون بأخلاقهم، ويسكنون مساكنهم، ويستعملون العربية في دواوينهم. فكانت دولتهم يومئذ "دولة نورمانية إسلامية" كما يصفها أحمد توفيق المدني⁽¹⁾. وكانت ثقافتها، كما تصفها مارلين ميراك فايسباخ، "ثقافة عربية مسيحية". ذلك أنه وكما تضيف:

"من فتح النورمان عام 1191م، وحتى عهد (أسرة هوهنتسلاوفن) كان كل شيء متمثلاً من الحكام المسلمين السابقين: من اللغة، والعمارة، والموسيقى، والشعر، والعلوم، إلى عادات اللباس. فبحلول عام 1149م وضع روجر الصقلي تشريعاً صارماً، على شالة ما فعلته بغداد، يحكم منح ترخيص الطبيب.

وفريدريك الثاني (1215-1250)، الذي نشأ والعربية لغته الأم، دعا علماء بغداد إلى بلاطه، إلى جانب الموسيقيين والشعراء. وكان مُعرّباً حتى العظم (حتى أنه دُفن بثوب عربي) لدرجة أن البابا إنوسنت الرابع اتهمه بأنه مسلم مُتَحَفَّ. وكلا فريديريك الثاني وروجر الثاني (1101-1154) عُرِفَ بأنه عمِدَ على أنه سلطان صقلية.

وقد أثارت حملة فريديريك (الصلبية) إلى القدس غضب الباباوية؛ لأنَّه بدل شن حرب لاستعادة المناطق التي حررها المسلمون بعد معركة حطين فاوْض المسلمين، وكرّس حياته للمناقشات الفلسفية مع العلماء. ووجه - لاحقاً - سلسلة من الأسئلة تتصل بطبيعة الله إلى الفيلسوف الأندلسي ابن سبعين، الذي نُشرت إجاباته بصورة "المسائل الصقلية" وقد أسس جامعة نابولي على أنموذج مراكز الدراسة الأندلسية. وإذا تمعنت بحصانة ملكية، فقد عرضت برناماً للدراسات الشرقية ائتمه توomas الأكويوني من بين آخرين. وعلى نحو دال استمر فريديريك الثاني كذلك في استعمال النظام المالي الإسلامي، الذي تبناه النورمان قبله. ومنفرد ابن فريديريك - الذي كان مختصاً بعلم الهندسة - تابع سياسة والده. وقد أكسبته مقاربة الليبرالية تجاه المسلمين الذين ملؤوا بلاطه، وأكسبت أخيه كونراد إدانة البابا⁽²⁾.

(1) أحمد توفيق المدني، المسلمين في جزية صقلية وجنوب إيطالية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص ص 26-27، نقاً عن د. عبد الله ميسوم، المرجع السابق، ص 264.

(2) Mariel Mirak Weissbach "Andalusia Gateway to the Golden Renaissance" Fidelio, Vol. 10, No. 3, fall 2001, p. 31.

والملهم في الأمر أن المناخ المنفتح الذي يسرّه هذه الدولة قد سهل بدوره عملية الاتصال الحضاري بين المسلمين وغيرهم، وخلق جوًّا من الحيوية والغنى ترك آثاراً واضحة في الأدب الإيطالي فيها تلا من عصور.

وربما كان من أبرز شخصيات البلاط النورماني في صقلية الإمبراطور فريديريك الثاني الذي تولى تربيته قاضي صقلية، والذي اشتهر بكريم رعايته لأهل العلم والفكر والأدب والفن. وكان "يجتمع في بلاطه شعراء من عدة جهات على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم" ذلك أنه كان يتقن عدة لغات، وكان من أبرزها العربية التي تعلمها في مختلف مراحل نشأته وتربيته. ولذا كان من الطبيعي أن يصبح بلاطه محجةً ل معظم الشعراء المعاصرين من التروبادور؛ بل إن عدد الشعراء الإيطاليين الذين كانوا ينظمون باللغة البروفنسية قد بلغ في عهده الثلاثين⁽¹⁾. وكان من أشهرهم التروبادوري الإيطالي سورديلوودي غويتو Sordello de Goito الذي كان محظى إعجاب دانتي البغيري وموضع تعظيمه وتقديره⁽²⁾. وفي عدة إلى السؤال المتقدم:

كيف تم انتقال العبق البروفنسالي إلى دانتي.

وما صلة شاعرنا الذي يُعدّ شاعر إيطالية الأكبر بشعراء التروبادور.
وما تأثير هذه الصلة في شعره.

يمكن أن يشير المرء إلى أن ثمة ما يشبه الإجماع بين دارسي دانتي على أنه قد استمدّ أصول فنه من مصادر عديدة، كان من أبرزها الشعر التروبادوري الذي كان بحق أهم أعمدة التقليد الشعري الذي ورثه وتمثله وعكسه فيما خلّد اسمه من قصائد تتصل بحبيبه بياتريسي. وكما يكرر ويليام أندرسون William Anderson صاحب كتاب دانتي الصانع الذي فاز بجائزة نادي القلم الدولي لعام 1981:

(1) د. عبد الإله ميسوم، تأثير الموشحات في التروبادور، ص 267.

(2) انظر

Italian Text and Translation. Translated, with a Commentary, by Charles S. Singleton. (Princeton University Press, Princeton, 1973. Pp. 54-65).

وانظر أيضًا:

Teodolinda Barolini, Dante's Poets: Textuality and Truth in the Comedy, (Princeton University Press, Princeton, 1984, pp. 153-172).

"كان من حظ دانتي بوصفه محبًا لبياتريسي وشاعرًا، أن يرث تقليدًا للشعر الغنائي ذات اللغة حب متطورة بشكل جيد، ساعده على أن يفسر تجربته وأن يعبر عنها. ولقد تابع هذا التقليد في قصائده المكرسة لبياتريسي في فترة حياتها وبعد موتها. وعندما التفت بعد موتها إلى الفلسفة وأنواع الحب الأخرى لتكون عزاءً له، مكنته هذا التقليد من الحفاظ على الدفع الغنائي في القصائد المكرسة للشخصيات الألية للفلسفة من سايبتيا أو Sapientia أو الحكمة الإلهية⁽¹⁾.

ولم يكن هذا التقليد فيا لحقيقة غير فن "الحب الرفيع" (Courtly Love) الذي جسّده شعراء التروبادور. الواقع أن صلة دانتي بشعراء التروبادور وفنهم كانت وثيقة جدًا. وفضلاً عن دينه الكبير لهم، والذي يقر به دون كير حرج، فإن دانتي كان يعرف لغتهم معرفة ممتازة تساعدته على تذوق شعرهم خير تذوق، حتى أنه كتب خطاب الشاعر التروبادوري آرنوندانييل Arnaut Daniel الذي أورده في المطهر باللغة البروفنسية⁽²⁾. وكذلك فإنه كان يعد بعضهم في مؤلفه De Vulgari Eleguentia (في الفصاحة العامية) أعلى سادة فنهم، وكان كثيراً ما يقتبس منهم مستحسناً. بل إنه كان يُضمّن بعض قصائده اللهجة الصقلية تعبيراً عن تعلقه الشديد بروح الجنوب.

وقد كان هذه الصلة الوثيقة التي انعقدت بين دانتي والشعر البروفنسية تأثير كبير في شعره وفي ملهاهاته الإلهية، ولا سيما في قصائده في الحب الذي فجرته في نفسه حبيبة بياتريسي التي التقاه عندما كانا في التاسعة، والتي لم تثمر علاقته بها زواجاً يجمع بينهما، فقد تزوج كل منهما شخصاً آخر غير من هام به. وما زاد في شجون دانتي وفاتها في الرابعة والعشرين من عمرها عام تسعين ومائتين وألف.

وعلى الرغم من قصر عمر علاقتها، فإن بياتريسي غدت مثال دانتي، وينبع إلهامه، و"الملاك المباشر لخلاصه" كما يدعوها في ملهاهاته. وقد بدا بكتابه قصائده فيها على الطريقة

(1) William Anderson, *Dante the Maker*, Hutchinson, London, 1983, p.87.

(2) Dante Alighieri, *The Divine Comedy: Purgatorio 1: Italian Text and Translation*, Pp. 278-289.

وانظر أيضًا

Teodolinda Barolini, *ibid*, Appendix, "Dante's Poets", pp. 287-297.

الذي ترصد فيه إشارات دانتي إلى الشعراء ولا سيما الشعراء الجوالون، التروبادور، في الكوميديا الإلهية، والبلاغة العامية، وغيرهما.

التروبادورية في العشرين من عمره، ونظم بين عامي اثنين وتسعين وأربعة وتسعين مجموعة من القصائد استلهما جميعاً من حبه لها، وجمعها تحت عنوان "الحياة الجديدة" *La Vita Nuova* وقدم لكل منها بمقيدة نثرية. ويستطيع القارئ لهذه المجموعة أن يتبعن بوضوح صورة الحبيب المرحوم الذي تزوجت من يهيم بها غيره، فذاق مرارة الخيبة⁽¹⁾، ولكنها كانت مثمرة على صعيد الفن. فقد شحنت آلام عزيمته، وأصبح أكثر قدرة على مواجهة الصعاب والمحن، وتسامي بعاطفته الدنيوية متحولاً بموضوعها وصاحبها إلى رمز الخلاص.

وهكذا غدت بياتريسي منقدة لدانتي مما هو فيه من غرابة ونفي وانتقال مستمر، ودليلًا له إلى معراج الفردوس.

نعم لقد غدت بياتريسي في نظر دانتي، وعلى الرغم من خيبيه الكبدي، "ربة الفضائل، وتوحي له بشعلة من الرحمة والمحبة تجعله يصفح عن لك من أساء إليه... وهو لا يطمع إلا في التمجد بها" إنه يعيش "لتخليد ذكرها"⁽²⁾. ذلك أنها لم تغب عن ذهنه قط على الرغم من فناء جسدها. ولم ينس يوماً حبها العقيق، ومضي يتغنى بها؛ لأنها كانت لديه الحب بكل ما يمثله من وفاء ونقاء وظهور في عالم اتسم بالنكران والغدر والخيانة وضياع القيم النبيلة. وهكذا كانت بياتريسي عند دانتي "مادة وروحاً، جسداً حسياً واقعياً، ورمزاً معنوياً مثالياً، وتعلقه بالجانب الروحي من محبوته هو الذي نفح في نفسه روح الشجاعة الحسية والمعنوية، فكان فارساً ومقاتلاً شجاعاً، كما كان عالماً وأديباً وفناناً، تدفعه أو تقوده صراعه مع الحياة، الصورة الرمزية للمرأة المعشوقة"⁽³⁾ وهي صورة مستمدّة كما يذكرنا بذلك مترجم الملهأ الإلهية الدكتور حسن عثمان "من أصول وظروف سابقة"، قريبة وبعيدة. وربما كان من أهم هذه الأصول "صورة المرأة في شعر شعراً التروبادور"⁽⁴⁾ التي استمدت بدورها من تراث الغزل العربي عامته.

(1) انظر د. عبد الإله ميسوم، المرجع السابق، ص 272.

(2) المرجع السابق، ص 273.

(3) المرجع نفسه، ص 273.

(4) د. حسن عثمان، مقدمة دانتي الإنجيري، الكوميديا الإلهية: المظهر، ترجمة حسن عثمان (دار المعارف بمصر، القاهرة، 1964، ص 44).

والحقيقة أن هذه الصورة في لحمتها وسداها، مدينة إلى حد بعيد للتأثير العربي الإسلامي، وليس ثمة من حاجة إلى الحديث مطلقاً عن المعاني التي تضمنتها سوناتات "الحياة الجديدة"، أو عن مصادرها العربية الإسلامية، أو عن صلتها بالحب الرفيع، أو حب البلاط Courtly amour curtios، الذي بثته هذه المصادر في أوربة عصر النهضة⁽¹⁾. فالصلة في غاية الوضوح يتلمسها القارئ لدى قراءته لأي من هذه السوناتات التي يمكن أن ندرج واحدة منها على سبيل التمثيل.

يقول دانتي في التقديم للسوناتات الحادية والعشرين:

"بعد أن تناولت الحب في السوناتات الأخيرة، شعرت بالرغبة في كتابة المزيد من مدح تلك السيدة الرقيقة، مظهراً كيف يوقد الحب من خلالها، وكيف أنها لا توقفه حيث هو نائم وحسب؛ بل كذلك كيف تخلقه حيث لا يوجد بالقوة، وتحترق بذلك المعجزات. وهكذا كتبت هذه السوناتات التي تبدأ بـ "قوة الحب".

إن قوة الحب المحمولة في عيني سيدتي

توزع الفضل إلى جميع من تنظر

والكل يلتفت ليحدق بها عندما تمر

وغدا ما أزجت التحية لإنسان فإن قلبه يخفق بشدة،

ويشحب وجهه، ويُطأطِّل رأسه، ويتحسر

إذ يفكر بكل نواقه

إن الغضب والكبراء لا يملكان إلا الفرار أمامها

فيساعدنني، أيتها السيدات العطوفات، على تشريفها

(1) لمعرفة المزيد عن أصول "الحب الرفيع" أو Courtly Love، ومعانيه، انظر:

Roger Boase, The Origin and Meaning of Courtly Love: A Critical Study of European Scholarship, 1977. Manchester University Press, Manchester.

إن التواضع وكل تصور عذب

ليورقان في قلب من يسمعها تتحدث

(والحمد لكل من رأها على ما كانت عليه)

إن صورتها عندما تبدأ بالتبسم

لتذوب في العقل وتتخر بعیداً

إنها معجزة جد غنية وغريبة لتصدق⁽¹⁾.

ولذا فإن المرء يستطيع أن يتجاوز مضمون سوناتات دانتي إلى شكلها الذي وضعت فيه.

تذكر معاجم المصطلحات النقدية الأوروبية أن السوناتا "Sonnet" (وبالإيطالية سونينتو Sonetto) قصيدة مؤلفة من أربعة عشر بيتاً، تُنظم على البحر الإيامبي الخماسي عادة، أو السادسسي في فرنسه، وأن خاتماً للقوافي المتعددة يتبع مقداراً من الحرية لتنظيمها، على الرغم من الافتراض التقليدي القائم حول محدودية حرية هذا النظم.

وتذكر "موسوعة برنسنون الجديدة للشعر والشعرية"⁽²⁾ أن أكثر أشكال السوناتا تميزاً ثلاثة هي:

- الشكل البتراركي (نسبة إلى الشاعر الإيطالي بترارك الذي عاش بين عامي 1304 و1374، أي أنه كان معاصرًا لدانتي في جزء من حياته).
- الشكل السبنسي (نسبة إلى الشاعر الإنكليزي المعروف).
- والشكل الإنكليزي أو الشكسبيري.

وتضيف بأن الشكل البتراركي الإيطالي هو أهمها، وأن فضل إشاعته وانتشاره الواسع في أوربة كالها إنما يعود إلى دانتي الذي سحر الناس بسوناتاته في "الحياة الجديدة".

(1) انظر:

Dante's Vita Nouva, New Edition: A translation and an Eassy by Mark Musa (Indian University press, Bloomington, 1973. P. 39.

(2) انظر مادة "sonnet" في: Alex Preminger and T.V.F Brogan,

The New Princeton Encyclopaedia of Poetry and Poetics (Princeton university press, Princeton, 1993 pp. (1167-1170.

ولكن من أين جاء هذا الشكل الجديد على الأدب الأوروبي؟

ثمة ما يشبه الإجماع على أن أصله غير مؤكدة. وكل ما يرجحه الباحثون أن هناك صلة صقلية في هذا السياق. إن السوناتا مؤلفة كما تقدم من أربعة عشر بيتاً، وهي موزعة على النحو التالي:

1 - هناك رباعيتان ينتهي الشطر الأول والرابع من كل منها أيضاً بقافية واحدة، وينتهي الشطر الثاني والثالث من كل منها أيضاً بقافية واحدة، ولكنها تكون مختلفة عن القافية الأولى، أي أن نظام القوافي في هاتين الرباعيتين هو:

ألف، باء، باء، ألف

ألف، باء، باء، ألف

A-B-B-A
A-B-B-A

2 - وهناك ثلاثيتان ينتهي الشطر الأول والثاني والثالث من كل منها بقافية مختلفة، ولكنها في تواليهما تصنعن نظاماً متناهراً يشبه تناظر الصورة وانعكاسها في المرآة على النحو التالي:

تاء، ثاء، جيم

جيم، ثاء، تاء

C-D-E
E-D-C

ويمكن ملاحظة هذا النظام بوضوح في هذا النص الأصلي لسوناتا "قوة الحب":

Ne Li occhi porta la mia donna Amore,
Per che si fa gentil cio ch ella mira:
Ov' ela passa, ogn' onver ei si gira,
E cui saluta fa tremar lo core,
Si che, bassando il viso, tutto smore.
E d' ogni suo difetto allor sospira:
Fugge dinanzi a lei superbia ed ira.
Aiutatemi, donne, farle onoer.
Ogne dolcezze, ogne pensero umile
Nasce nel core a chi parlar la sente,
Ond' e laudato chi prima la vide.
Quell ch'ella par quando un poco sorride,
Non si po dicer ne tenere a mente
Si e no novo miracolo e gentile.

وكل ما يعرفه الأوروبيون عن أصل هذا النظام المعقد بالقياس إلى ما سبقه من أنظمة في تاريخ الشعر الغنائي الأوروبي، هو أنه يعود إلى شكل الرباعيteen الصقلي المعروف باسم "سترامبوتو" strambotto، والذي يرجع إلى نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلاديين (أي إلى الفترة التي تلت خروج العرب من صقلية قد أضيفتا فيما بعد إليه، وأن أقدم ما لدينا من شواهد يعود إلى الشاعر الإيطالي Giacomo da Lentini الم提到了， وأن تقليدي أثير لدى الشعراء ولا سيما بعد اختياره من جانب دانتي في سوناتاته التي جمعها تحت عنوان "الحياة الجديدة".

وقد انتشر هذا الشكل الجديد فيها بعد خارج إيطالية مع شيء كبير من محتواه (الذي كان أساساً تنويعات على هذا الحب الأفلاطوني، كما يحب الأوروبيون أن يسموه أو الحب العفيف، أو الحب الرفيع كما هو واقع الحال). نعم لقد انتشرت السونatas في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في فرنسا، وإسبانيا، والبرتغال، وهولندا، وبولندا، وإنكلترا، وانتقل فيها بعد إلى ألمانيا، والبلدان الإسكندنافية وروسيا، وإلى جميع أنحاء العالم.

وهكذا انتشر المد الصقلي الزاحف على يد شاعر إيطاليا الأكبر دانتي اليغرى ليعلم خيره العالم، وتحقق له على يد مجموعة الحياة الجديدة، حياة جديدة ومشرة.

لقد كانت بياتريسي التي نظم فيها دانتي سوناتات الحياة الجديدة مثل نجمة الصبح في صحراء حياته، ولكن فقدتها كان مصدر خير للأدب العالمي؛ لأن الأحزان التي ولدها هذا فقد في نفس الشاعر الإيطالي كانت مراقة له، ومعراجًا تسامي بها إلى عالم سماوي آخر، وصفه في ملهاه الإلهية فأبدع وأجاد.

وقد وعد دانتي بياتريسي أن يقول فيها - إن مد الله في عمره - "ما لم يقله رجل في امرأة من قبل⁽¹⁾". ويبدو أنه بر بوعده حينما جعل من ملهاه تذكاراً لا ينسى، ومتنالاً يقف المرء أمامه بخشوع، لأمرأة تتكامل شخصيتها وتنامي في صورتها الواقعية وفيها تنطوي عليه من رمز بكلامها وحركاتها وبها توحيه إلى دانتي من المعاني، وبها تبذلها في سبيله لكي تخلصه من أدران الدنيا وتسمو به إلى حياة الخلود⁽²⁾.

(1) انظر: د. عبد الإله ميسوم، المراجع السابق، ص 272.

(2) د. حسن عثمان، مقدمة، المراجع السابق، ص 44.

وكما خلّدَها بملهاته وديوانه، قامت هذه المرأة بتخليله، مثلما قامت بتخليل استلهامه للروح العربية الإسلامية التي غلبت على سوانحاته شكلاً ومضموناً، وسحرت ألباب معاصريه ولاحقيه، فحاکوها ونشروها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. وهذه سنة الفن الرفيع الذي يجسد الانجاز الإنساني السامي المتتجاوز لحدود اللغة والدين والعرف؛ ذلك أن الفن واحد لأن متوجه واحد، وهو الإنسان، سر أسرار الكون.

مكتبة البحث:

- ديني دي رجمون، الحب والغرب، ترجمة د. عمر شحاشيرو، (وزارة الثقافة، دمشق، 1972).
- د. حسن عثمان، مقدمة في " دانتي إليجيري، الكوميديا الإلهية: المطهر، ترجمة د. حسن عثمان، دار المعارف، مصر، 1964 م).
- د. عبد الواحد لؤلؤة، دور العرب في تطور الشعر الأوروبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013 م.
- د. عبد الإله ميسوم، تأثير الموشحات في التروبيادور، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجائز، 1981 م.
- د. وهبة غريال، أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987 م.
- Alighieri, Dante, *The Divine Comedy: Purgatorio 1: Italian Text and Translation, Translated, with a Commentary, by Charles S. Singleton*, (Princeton University Press, Princeton, 1973).
- Anderson, William, *Dante the Maker*, (Hutchinson, London, 1983).
- Barolini, Teodolinda,
- *Dante's Poets: Textuality and Truth in the Comedy*, (Princeton University Press, Princeton, 1984).
- "Dante and the lyric past" in: *The Cambridge companion to Dante*, Edited by Rachel Jacoff (Cambridge University Press, Cambridge, 1993).
- Bermann, Sandra,
- "World Literature and Comparative Literature", in: *The Routledge Companion to World Literature*, Edited by Theo D'haen, David Damrosch, and Djelal Kadir (Routledge, New York and London, 2014, pp.169-179).
- Boase, Roger,

- The Origin and Meaning of Courtly Love: A Critical Study of European Scholarship, (Manchester University Press, Manchester, 1977).
- Brogan, T.V. F., Lawrence J. Zillman, and Clive Scott,
- “Sonnet”, in: Preminger, Alex and T.V. F. Brogan, The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics (Princeton University Press, Princeton, 1993), pp. (1167-1170).
- Galati, Carmelo Antonio,
- “Hallowed Ground: Dante’s Commedia in the New Millennium”, (A Ph. D. Thesis, Rutgers, the State University of New Jersey, 2011).
- Gragnolati, Manuele, Fabio Vamilletti, and Fabian Lambert,
- Metamorphosing Dante: Appropriations, Manipulations and Rewritings in the Twentieth and Twenty-First Century (Verlag Turia+Kant, Wien-Berlin, 2010).
- Jacoff, Rachel, (editor)
- The Cambridge Companion to Dante, (Cambridge University Press, Cambridge, 1993).
- Mathews, Joshua Steven.
- “The American Alighieri: Receptions of Dante in the United States, 1818- 1867”, (Ph. D. Thesis, the University of Iowa, 2012),
- Musa, Mark,
- Dante’s Vita Nuova, New Edition: A translation and an Essay by Mark Musa (Indiana University Press, Bloomington, 1973).
- Preminger, Alex and T.V. F. Brogan,
- The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics (Princeton University Press, Princeton, 1993).
- Toynbee, Paget, Britain’s Tribute to Dante in Literature and Art:
- A Chronological Record of 540 Years (c. 1380-1920) British Academy, London, 1921).
- Wallace, David,
- “Dante in English”, in: The Cambridge Companion to Dante, Second Edition, Edited by Rachel Jacoff (Cambridge University Press, Cambridge, 2007) pp. 281-304.
- Weissbach, Mariel Mirak.
- “Andalusia Gateway to the Golden Renaissance” Fidelio, Vol. 10, No. 3, fall 2001.